الكتاب العربي في سوريا

بقلم صبحي الكيالي
سفير الجمهورية العربية السورية

الكتاب العربي في سورية ، والحديث عنه ، كظاهرة من الظواهر الثقافية ، وعلامة من علاماتها ، حديث متشعب طويل ، شانه في ذلك شأن الكتاب العربي في أكثر البلاد العربية ، منذ أخذت الطباعة طريقها الى المشرق العربي في نطاقها الضيق ، حتى بلغت مبلغها اليوم ، من انتشار واسع ، ونشاط دائب ، وعمل لا يكاد ينقطع في فترة من فترات النهار أو الليل .

وليس من حق محاضرة موجزة كهذه المحاضرة ، تهدف الى التعريف القريب بالكتاب العربي في سورية ، ان تمضي بعيدا في تتبع هذا الكتاب منذ نشاته ، ولا أن تحرص على الوقوف عند نماذجه الاولى ، ولا أن تسلك وجه التاريخ الدقيق لكل مرحلة من مراحله . وحسب هذا اللقاء ، أن يضع المرء أمام الكتاب العربي في سورية ، في أبرز اتجاهاته وأظهر معالمه وملامحه .

ولهذا ، لن يكون من هدفي هذه الامسية ، أن أحاضر بمقدار ما هو أن اتحدث . ولن يكون كذلك من خطتي أن أؤكد على الجانب التاريخي ، وان اتتبع المراحل المتسلسلة ، وان اذكر السنين والارقام ، وأن أسرد قوائم مرتبة على أساس العلوم ، او مصنفة على أساس الحروف . لن يكون هدفي ذلك ، بمقدار ما يكون من خطتي ان انظر هذه النظرة الجامعة ، التي تحاول أن تلم كل هذا النتاج الطباعي في سورية ، وان تجمعه حول بعض الاتجاهات أو بعض الخطوط .

× × ×

ولعل ابرز ما يرتسم في ذهن الذين يدرسون هذا النتاج الطباعي ، انهم يلاحظون ان الكتاب العربي ، على طول الطريق التي مضى فيها في البلاد السورية ، لم يكن قط هذا الاثر المادي الذي يتظاهر على اخراجه مؤلف وناشر ، ويصطلح عليه كاتب وطابع ، ويعمل فيه محقق وتاجر . وانما كان منذ بدايته الاولى ، هذه الظاهرة الاجتماعية التي تعبر عن اتجاه ، وتسعى الى فكرة ، وتصنع من امامها هدفا ، العامل المادي فيه اضعف عناصره وابعدها .

ولقد كانت هذه الظاهرة الاجتماعية ، أعنى هذا الكتاب ، تحمل في الغالب كل ما يضطرم في المجتمع الجديد في سورية ، في كل الفترات المتسلسلة من تاريخ الطباعة . كانت تعبر عن اتجاهاته ، وتمثل مطامحه ، وكانت تعكس تفكير اصحابه ، وتنبيء عن اتجاهاتهم نحو القديم أو نحو الجديد ، أو نحو مزج القديم والجديد. كانت تجميعا لكل الذي يضطرب فيه هذا المجتمع ، أفرادا وجماعات ، وكانت تتويجا لكل هذه المسارب التي تمضي فيها الحياة الاجتماعية في الثقافة والاقتصاد ، في العقيدة والمثل الاعلى ، في النهضة واكتساح العوائق ، في رعاية الماضي وفي التطلع الى المستقبل ، في النظر الى هذا الوجه أو ذاك من أوجه الحياة المختلفة الكثيرة التي لا تكاد تحصى .

وعلى أساس من هذه الحقيقة الاولى في حياة الكتاب العربي السوري ، أي على أساس من انه ظاهرة اجتماعية ، استطاعت أن تمثل بأمانة ودقة كل اهتمامات

المجتمع العربي في سورية ومطامحه ، فاننا نستطيع أن ننظر في الكتاب العربي في خطوطه الاربعة الكبرى :

– الكتاب العربي الحر .

– والكتاب العربي المجمعي ، أي الذي تولاه المجمع العلمي العربي .

– والكتاب العربي الجامعي ، أي الذي تولته الجامعة السورية .

– والكتاب العربي في وزارة الثقافة والارشاد القومي ، منذ أسست هذه الوزارة في الاعوام الاخيرة .

× × ×

لقد كانت الثمرات الاولى للطباعة العربية في سورية عملا حرا ، اذا نحن استثنينا المنشورات الرسمية أو ما في حكمها مما كان يصدر عن مطبعة الحكومة . ذلك إن بعض المطابع في دمشق وحلب – بوجه خاص – هي التي كانت تجمع قواها حول الكتاب العربي ، طباعة ونشرا ، وقد تظاهر على ذلك قوتان أساسيتان :

أولاهما قوة أصحاب المكتبات والمطابع .

والاخرى قوة العلماء الذين اخذوا ينصرفون الى التاليف والتحقيق . ولم تكن هاتان القوتان متباعدتين ، ولم تكن احداهما غريبة عن الاخرى . كانتا متكاملتين احداهما الى جانب الاخرى . وكان هنالك هذه الظاهرة التي نلمحها بوضوح ، وهي ان الناشر أو صاحب المطبعة لم يكن بعيدا عن الحياة العلمية – بمفهومها آنذاك – وانما كان في غالب الامر ، قريبا منها ، أو متصلا بها . كان طالبا للعلم ، أو على صلة بالعلماء ، أو نصيب من ثقافة ، يتيح له الا ينظر الى الكتاب على انه مشروع تجاري صرف . انما كان ينظر الى الكتاب على انه هذا الشيء المتميز . وقد يشارك في اختياره ، وقد يكون له رأي فيه ، ويعين المؤلف على بعض عمله في انتقاء المراجع والتصحيح والتدقيق . كان الطابع أو الناشر ، بتعبير آخر ، وراقا ، على حد ما يقول علماؤنا في ترجمة بعض العلماء أو المتأدبين . كان وراقا يمارس العلم تحصيلا وكسبا .

وتفسير ذلك ان الكثرة من الناس الذين يقومون ببعض المهن المتميزة – ان صح هذا الوصف – كانوا عندنا – كما كانوا في اكثر بلادنا العربية – ولهم دائما هذه المشاركة في الثقافة : يقرأون في بعض المدارس أو على بعض الشيوخ ، ثم اذا انخرطوا في الحياة العامة ، لم ينسلخوا عن المطالعة والعلم ، وانما كانوا يلاحقون ذلك على أساس من الاتصال المستمر بشيخ يتابعون عليه بعض القراءات ، أو حلقة يتذاكرون فيها بعض الكتب ، أو اجتماع يتدارسون فيه بعض المصنفات . انهم لم يكونوا ينقطعون عن المعرفة وعن التزود منها بحال من الاحوال ، في سن ما من الاسنان . لأنهم كانوا ياخذون دائما بالحديث الشريف: اطلبوا العلم من المهد الى اللحد.

وهكذا التقى صاحب المطبعة وصاحب المكتبة وصاحب القلم . وبدأت تتجمع الاحرف في صفحات ، والصفحات في ملازم . وتدور الآلات الطابعة ، فتخرج للناس بعض الكتب التي سترون في المعرض نماذج قليلة منها .

هذه الكتب التي كانت ثمرة الاختيار الحر يمكن ان نلحظ فيها نوعين اثنين :

– احدهما بعض الكتب التعليمية ، أي التي كانت تستخدم في التعليم ، ما كان منها للتدريس الحر في حلقات المساجد أو المدارس الاهلية ، وما كان منها للمدارس الرسمية .

– والآخر هو بعض الكتب الثقافية التي كانت تهدف الى اشاعة الثقافة أو اغناء المعرفة ، سواء ما كان من هذه الكتب مؤلفا أو ما كان محققا .

وحين نرصد هذه الطريق ، نستطيع أن نقرأ بعض الاسماء ، وان نذكر بعض المكتبات ، وان نقف عند بعض المؤلفين والناشرين والطابعين . ولكننا لن نستطيع ان نستقصي ذلك الآن . ومع ذلك ، فانه يبقى في اذهاننا نحن نتحدث عن الكتاب الحر ، اسماء عدد من المكتباب الناشرة ، كالمكتبة العربية ، والمطبعة العلمية ، والمكتبة الهاشمية ، ودار اليقظة العربية ، ودار الفكر ، وغيرها من المكتبات الناشرة الكبيرة ، التي غذت ميدان المعرفة بامهات الكتب العلمية الدينية والادبية والتاريخية ، تاليفا وتحقيقا .

ولو استعرضنا اسماء الكتب والمؤلفين ، للاحظنا ان هذا النتاج أشبه ما يكون بالنتاج الموجه الذي الزم نفسه بمسلك معين واخلاق محددة. اذ انه لم يكن يرغب في أن يتخطى دائرة الحياة العربية السليمة والتاليف الرصين العاقل ، والتراث القديم الثمين . ان هذا الالتزام

لم يكن ايحاء ولا فريضة أو ضريبة ، ولكنه كان احساسا داخليا عميقا بقيمة الكتاب في تكوين الحياة وفي تسديد العقول وفي رشاد الناس ، والتأبي عن أن يكون مطية لتسلية عابرة أو سبيلا لوقت ضائع . ان أولئك الذين كانوا ينهضون بالكتاب العربي ، ما كانوا ينظرون اليه الا من اكرم الزوايا ، ومن احفلها بالخير والخصب والفائدة ، ومن أشدها تقريبا للقارىء من تراثه ، من ماضيه ، ومن مستقبل لا ينفصم عن هذا الماضي ولا يعاديه .

ومن المؤكد انه كان هنالك الى جانب ذلك ، نتاج طباعي آخر ، يتجه الى التسليةوالمتعة باكثر مما يتجه الى الفائدة والمعرفة . وربما وجدتم في المعروضات شيئا منه . ولكنه كان كذلك ، موصول الاسباب بالحياة العربية نفسها ، باصولها وتقاليدها ، وفروسيتها وبطولاتها ، وفي دعم هذه التقاليد واثارة هذه الفروسية . ومن هنا نجد ان هنالك ـ الى جانب الذي قدمت الحديث عنه ـ سلسلة من الكتب القصصية القديمة : قصة عنترة ، وسيف بن ذي يزن ، وبني هلال ، والملك الظاهر بيبرس ، وما اليها ، تطبع هنا وهناك ، الى جانب قصص محلية أخرى ، وتتميز كلها ـ هذه وتلك ـ بانها أقرب الى روح العامة من الناس ، والى اغناء هذه الروح وتغذيتها .

ولقد ظل الكتاب العربي الحر يدرج في هذه السبيل الرصينة التي حدثتكم عنها ، حتى كانت هنالك حركة أخرى أرادت ان تخرج بالكتاب العربي ، من نطاق التأليف والتحقيق والتراث ، الى نطاق النقل والترجمة . وفي هذا الاتجاه ، نجد قائمة طويلة بمطبوعات دار من دور النشر في دمشق ، هي دار اليقظة . فقد التف حول هذه الدار نفر من أصحاب الثقافات الجديدة ، ممن يحرصون على اشاعة بعض الآثار الادبية العالمية ونقلها الى العربية . التقى هؤلاء ، وهم ذوو ميول متقاربة في الحياة والعقيدة والنظام والفكر ، فدفعوا الى تلك الدار بطائفة من الترجمات : لمكسيم جوركي ـ وتولستوي ـ وتشيخوف ـ وجي ده موباسان ـ واهرنبرغ ـ وعشرات غيرهم من مبدعي روائع الاداب الروسية والفرنسية والالمانية والانجليزية . وكان من نتيجة ذلك ، ان انتقلت الى اللغة العربية عشرات عديدة من الكتب المنتجة من عيون الادب الغربي ، قديمة وحديثة .

ومن المؤكد ان هذه الترجمات أو اكثرها ، كانت في حاجة ماسة الى تخمير ونضج . ولكن الوقت ، فيما يبدو ، كان يلهب الذين وراء هذه المشاريع . فكان هذا النتاج الغزير في كمه ، على مثل ما انتقده الناقدون ، من حاجته الى الاتقان والصقل والتشذيب .

وعلى اطراف هذه الحركة من الكتاب الموجه أو المترجم ، كان هنالك ، في دار اليقظة العربية ، ومكتبة اطلس ، ودار الفكر وغيرهما ، مجموعة كبيرة من الكتب المؤلفة ، في مختلف ابواب العلم والمعرفة ، وبخاصة ما يتعلق بانماء الشعور القومي ، وارساء القواعد لمجتمع ناهض جديد ، وتوضيح الاصول التاريخية والدينية والاجتماعية والاخلاقية والسياسية ، للأمة العربية ، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها . فانكب المؤلفون على تلك الاصول ، يتدارسونها في عمق وأناة ، ويشيدون البناء الراسخ ، حتى لا تبدو فيه ثغرة ، ولا يظهر عليه تصدع .

وهكذا أخرجت لنا تلك الدور مجموعة كبيرة من هذه الكتب ، نذكر منها : مشاكل العالم العربي ، والعرب والعروبة ، وعصر النبي وبيئته ، ومأساة فلسطين ، وجميعها لمحمد عزة دروزة ـ والامة العربية ، ومشاكلنا القومية ، والعبقرية العربية وجميعها لزكي الارسوزي ـ والوطن العربي لعزة النص ـ وأوراس لاحمد عبد المعطي حجازي ـ والاسس الثورية للقومية العربية لأحمد الشيباني ـ وعمان الثورة لابراهيم الحارثي ـ ومأساة فلسطين لصالح الاشتر ـ والأمة العربية في معركة تحقيق الذات لمحمد المبارك .

ولكن الكتاب الحر لم يتابع طريقه بعد ذلك ، على نحو متصل العطاء غزير النتاج ، ذلك ان مؤسسات أخرى تشرف عليها الدولة ، كانت تأخذ طريقها الى النشأة والنمو ، لتنتزع زمام المبادرة ، ولتحاول أن تخطو بالكتاب خطوات أخرى في اتجاهات جديدة . وكان ان قامت وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ترعى الكاتب وتحتضن الكتاب ، وتيسر له سبل الطبع والنشر والتوزيع ، متحملة الغرم والغنم ، وسنتحدث في هذا الشأن ، بعد أن نمر بالمجمع والجامعة .

× × ×

أما المجمع العلمي العربي ، فهو اكرم المؤسسات العلمية في سورية ، وارسخها واحفلها بالعمل الصامت والجهد الدائب والكفاح المستمر . ان موقعه في المدرسة العادية بين ظهراني المسجد الأموي العظيم ، اضخم مآثر الاسلام في بلاد الشام ، والطريق الضيقة الطويلة التي تسوقنا اليه ، والتي تعبق برائحة التاريخ ، والبناء

الحجري الفخم الذي يأخذ بلب الناظر اليه – ان هذا الموقع ، بهذا التفرد ، هو تعبير كذلك عن تفرد هذا المجمع برسالته ، وانصرافه اليها وانكبابه عليها والتزامه بأمانته الثقيلة .

وليس بين مثقفي الوطن العربي أو العالم الاسلامي ، ولا في دوائر الدراسات الاستشراقية في أوروبا ، من يجهل أمر المجمع . انه أقدم مجامعنا العلمية في الوطن العربي كله . ولقد كان الثمرة اليانعة الاولى من ثمرات الحياة العربية المستقلة في سورية ، منذ أن نشأت الدولة العربية السورية الأولى في اعقاب الحرب العالمية الأولى في عام 1918 . وقد واجهت الدولة ، فيما واجهت من الصعوبات ، قضية اللغة العربية ، ذلك لأن اللغة التركية كانت هي اللغة الرسمية في البلاد ، ولان الموظفين الاتراك كانوا يتولون معظم رئاسات الدوائر ، بل ان الموظفين العرب كانوا يجهلون الانشاء العربي ، ويعبرون عن مصطلحات الدواوين بالتركية . فكان على الحكومة السورية أن تغير هذه الحالة ، وتحول اللغة الرسمية من التركية الى العربية في جميع الدوائر والمدارس . وقد تم ذلك بسرعة فائقة . فاستحدثت الحكومة دروسا خاصة بالموظفين تستهدف تعليم الانشاء العربي ، وأخذ عدد غير قليل من الادباء والموظفين يراجعون الكتب العربية القديمة والحديثة ، بغية ايجاد المصطلحات وتقرير أفصح الاساليب التي تليق بحكومة عربية حديثة . وتألفت لهذا الغرض ، لجان عديدة سعت وراء تنسيق هذه الجهود وتعجيل ثمراتها . وأصبحت الدولة السورية بذلك تستحق اسم الدولة العربية بصورة فعلية .

وعلى اثر هذه الحاجة الماسة الى مؤسسة تكون مرجعا للدولة والناس ، في شؤون لغة قرآنهم ، ولد المجمع العلمي العربي في عام 1919 ، ليسعى الى غرض سام هو اصلاح اللغة العربية ، بعد فساد مقوماتها وذبول نضارة الحياة فيها خلال عصور طويلة من الظلام والانحطاط . ولهذا فقد نصب المجمع نفسه قيما على شؤونها ، وأصبح بمثابة الرقيب ، سواء أكان ذلك في دوائر الحكومة ومدارسها أم في ميدان الثقافة الشعبية . واتخذ بشأن ذلك قرارا في عام 1919 جاء فيه :

« لما كانت الحكومات المختلفة قد تعاقبت على هذه البلاد بعد الفتح العربي ، وغيرت كثيرا من الاوضاع التي اصطلح عليها كتاب الدواوين ، وشوهت محاسنها ، ولاسيما في عهد دول التتر والاتراك ، مست الحاجة الى تجديد الاوضاع الأولى ، وتعريب الاخرى منها ، ووضع الفاظ جديدة لمعان لم تكن قبلا ، والغاء الفاظ لا توجد اليوم . فاجلنا النظر في كثير من كتب الخطط والاحكام السلطانية والدواوين والترسل والوثائق وما شاكلها ، أهمها : كتاب الخراج لابي يوسف وقدامة بن جعفر ، وكتب الفتوح وأشباهها ، مثل مقدمة ابن خلدون وبعض التواريخ المشهورة ، وكتاب الاحكام السلطانية للماوردي ولابي يعلى الحنبلي ، وسلوك المالك لابن ابي الربيع ، وقوانين الدواوين لابن مماتي ، وكنز الكتاب لكشاجم الرملي ، والتعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي ، ومعالم الكتابة لابن شيث القرشي ، وكتاب صبح الاعشى للقلقشندي ، الى كثير من اشباه هذه الكتب من مطبوعة ومخطوطة ، معتمدة عند ارباب اللغة والتاريخ . وبعضها ، ان لم نقل اكثرها ، من النوادر المحفوظة في بعض المكاتب .

وبعد ان اخترنا من هذه الالفاظ ما رأيناه من حاجات دوائرنا اليوم ، أخذنا مصطلحات الدوائر الملكية والعسكرية ، وبدأنا في اختيار ما يناسبها ، ووضع ما لم نجده ، أو تغييره لتغير مفاده اليوم . فاخترنا لها هذه الاوضاع بعد تمحيصها والمذاكرة فيها ، راجين ان يعم استعمال هذه المصطلحات العربية الفصيحة احياء للغة العربية ، ورجوعا بها الى نضرتها الأولى » .

وهكذا وجد المجمع ، في عام 1919 ، المجال أمامه مفتوحا ليعمل وينتج ويصلح . لقد كانت الدولة بجميع مؤسساتها ودوائرها ومدارسها ، ميدانا رحبا له . وكانت المؤسسات الأهلية ، الصحف والنوادي والمنظمات والجمعيات ، حقلا فسيحا يزرع فيه البذور الصالحة والزهور اليانعة . وكان من نتيجة ذلك ، ان ارتقت لغة دوائر الحكومة السورية منذ ذلك الزمن ، وعدت – يومذاك – اصلح من اشباهها في سائر الدول العربية.

أما في المجال التعليمي ، فقد استعان المجمع بالاختصاصيين من جميع الفروع ، فجمع بين قدرة اعضائه اللغوية ، وبين معرفة الاختصاصيين بمفاهيم الالفاظ الفنية . فألف لجنة مشتركة ، كلفها ان تنظر في الفاظ العلوم الطبيعية والرياضية والزراعية ، وغيرها من المواد التعليمية . كما وضع المجمع جملة من المصطلحات للجيش العربي في سورية . وكان لهذه المصطلحات تأثيرها الفعال في نقل التعليم في الجيش وفي المدارس العسكرية من التركية الى العربية . ولما احتل الجيش

الفرنسي سورية في صيف عام 1920 ، نقلت هذه المصطلحات الى العراق ، فكانت نواة للقاموس العسكري الذي وضع بعدئذ للجيش العراقي . وهكذا ، فقد امتدت ظلال المجتمع الوارفة ، حتى شملت مرافق التعليم كلها . فما كان يطبع كتاب مدرسي ، ما لم يوافق المجمع على لغته وعلى موضوعه .

والى جانب هذا الجهد المثمر في شؤون اللغة والمصطلحات ، اسهم المجتمع في بث الثقافة العربية ونشر الثقافة العامة ، فالقى اعضاؤه المحاضرات وعقدوا الندوات ، حتى أربى مجموع تلك المحاضرات على قرابة اربعمائة محاضرة في مختلف الموضوعات الثقافية ، انتقى المجمع نخبة منها ونشرها على الناس في ثلاث مجلدات كبيرة .

والتفت المجمع الى تراث الاجداد من المخطوطات ، ونقب في نفائسها ليحققها وينشرها ، حتى اخرج اكثر من خمسين كتابا ورسالة ، من اهمها : ديوان الوليد بن يزيد ، ورسالة الملائكة للمعري ، وتاريخ حكماء الاسلام للبيهقي ، وكتاب الأشربة لابن قتيبة ، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ، وديوان علي بن الجهم ، وديوان الوأواء الدمشقي ، وديوان أبي حصينة ، والرسالة الجامعة للمجريطي ، وثلاث مجلدات من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، وجامع التواريخ للقاضي التنوخي، وجزء من خريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الاصفهاني ، وكتاب الابدال ، وكتاب الاضداد ، وكتاب المثنى وكلها لابي الطيب اللغوي ، وكتاب النوادر لابن حريش الأعرابي ، واسرار العربية للأنباري ، وأخبار البحتري لابي بكر الصولي ، وغيرها من الكتب النفيسة المحققة المشروحة .

ونشر المجمع كتبا كثيرة ، منها بعض كتب الاستاذ محمد كرد علي ، والاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي ، وبعض كتب اعضائه العاملين والمراسلين ، وكتب نخبة منتقاة من كبار العلماء والمؤرخين والمحققين والادباء والكتاب . كما نشر فهارس مجلته ومجموعة الالفاظ المعربة والموضوعة الواردة فيها ، ومعجم المصطلحات الحراجية باللغات العربية والفرنسية والانجليزية للامير مصطفى الشهابي ، وفيه نحو الف مصطلح عرفت تعريفا علميا موجزا .

ومن الاعمال التي اسهم فيها المجمع ، والتي تتصل بحياة المجتمع ومؤسسات الدولة ، ذلك المعجم العسكري ، الذي اشترك في وضعه رئيس المجمع الامير مصطفى الشهابي وعدد من اعضائه، أمد الله في عمرهم. وذلك ان الجيشين المصري والسوري ، حينما توحدت مصر وسورية في عام 1958 ، وجد كل منهما لدى الآخر حصيلة كبيرة من الكلمات تختلف عما لديه مبنى واصلا، فكان كل منهما يتكلم لغة عسكرية ذات الفاظ لم يعتدها الجيش الآخر . وكان لابد لهاتين اللغتين ، فيما اذا تركتا تتعايشان ، من أن تتفاعلا ، لينتهي بهما الامر الى مجموعة من الالفاظ تنتشر حتى تغلب وتنتصر . سوى ان لهذه الطريقة مخاطرها ومساوئها ، وبخاصة أن مراحل التوحيد يجب أن تتم في أوقاتها المحددة ، ولا بد لان تخضع تلك المراحل لمصطلحات واحدة ، وتنتشر مفاهيم العمل العسكري في القيادات والثكنات والوحدات بسرعة ودقة . فنشأت الحاجة الى معجم عسكري جامع مانع ، يفهم كل ما يتعلق بالحياة العسكرية وفنونها وعلومها ، واسلحتها وموادها وتجهيزاتها ، واشخاصها وتشكيلاتها وقياداتها . وكان المعجم العسكري الكندي ، من أعظم المعاجم الحديثة في العالم ، وذلك لأنه يضم المصطلحات العسكرية باللغتين الفرنسية والانجليزية ، لأن هاتين اللغتين هما اللغتان الرسميتان في كندا . وقد انتقت القيادة العامة هذا المعجم ليكون الاساس لمشروع المعجم العربي . فتألفت لجنة برئاسة الامير الشهابي ، وضمت عددا من أعضاء المجمع ونخبة من الضباط . ووزعت هذه اللجنة الأعمال على عدة لجان تضم عشرات الضباط من الاقليمين . ودار دولاب العمل كالآلية لا تهدأ في ليل ولا في نهار ، طوال عامين لم ينقطع العمل فيهما يوما قط . حتى اذا انتهت اللجنة من عملها ، خرجت على الناس بمعجم عسكري هو مفخرة من مفاخر العمل العلمي والقومي معا . فقد كان المعجم في جزاين، احدهما عربي فرنسي ، والآخر عربي انجليزي، وفي كل منهما نحو ستين الف مصطلح عسكري .

ويثابر المجمع على اصدار مجلته التي بلغت من العمر عقدها الخامس ، فلقد تأسست في عام 1921 ، ولا تزال ترى النور في كل فصل من الفصول الاربعة ، لتنشر البحوث والدراسات في اللغة العربية وآدابها ومصطلحاتها العلمية ، وعثرات الاقلام والاخطاء الشائعة ، وفي تاريخ العرب وتراث الاجداد من المخطوطات والمخلفات الأثرية، الى غير ذلك مما له صلة بلساننا وحضارتنا وثقافتنا في القديم والحديث . ويتحلق حول هذه المجلة اعضاء المجمع

وكبار الكتاب العرب والمستشرقين . واذا كنت لم أتحدث عن المجلات ، ولم يكن لها في المحاضرة نصيب ، فانه لا يجوز ان نمر بالكتاب المجمعي دون أن نقف أمام هذه المجلة ، التي غدت عملا فذا . ففي صفحاتها دراسات كالكتب القيمة ، وفي مهادها ومن أبحاثها نشأت كتب كثيرة . وانتشارها ومكانتها في الوطن العربي والعالم الاسلامي وفي دوائر الاستشراق ، يجعلان الاشارة اليها في معرض التعريف بالكتاب العربي ، ضرورة لا غنى عنها .

وهكذا ، نرى ان نتاج المجمع الطباعي نتاج ضخم في مقداره ، ضخم في قيمته . والناظر فيه يستطيع أن يحفظ له هذه السمات المميزة له :

ـ فقد استطاع ان يؤصل لحركة نشر التراث القديم ، وان يمنحها روحا جديدة وطرائف علمية حديثة.

ـ وان ينبش التراث ، ويصفى منه قدرا صالحا طيبا في اللغة والادب والتاريخ .

ـ وان يولي الموضوعات اللغوية ، بخاصة ، كثيرا من اهتمامه في التأليف والتحقيق .

ـ وان يجعل الوصل بين ماضي الحياة العربية وواقعها وتطلعاتها هدفا دائما له . اذ كان كل عمل من أعماله تلبية لرغبة من رغبات هذا التطلع البعيد .

ولقد اعطى المجمع العلمي العربي امثولة رائعة ، وظل دائما مهوى افئدة العلماء العرب والمسلمين في مختلف بقاع الارض ، كما ظل ملتقى انظار المستشرقين. وكان في سيرته وعمله وصحته ، الانموذج الذي اتجه اليه العرب بعد في تأسيس المجمع اللغوي في القاهرة والمجمع العلمي العراقي في بغداد . وفي وسعنا أن نقول ، ان المجمعين انشطار للمجمع الاول ، وان المجامع الثلاثة ـ ولعلي أود أن ان أقول : المجامع الاربعة ، باضافة المجمع المغربي المرتقب ـ نقول : ان هذه المجامع كلها ليست الا الركائز الانسانية في النهضة العربية المعاصرة ، تأصيلا لها ، وربطا بماضيها ووعيا لحاضرها ، وتطلعا الى مستقبلها .

ولست احتاج الى الافاضة في الحديث عن المعجم ، ففي المطبوعات التي سترونها في المعرض نخبة من الكتب المجمعية . وما أظنني كذلك احتاج الى الاطالة ، وبين ظهرانيكم أربعة أعضاء عاملين في المجتمع ، وهم الدكتور امجد الطرابلسي ، والدكتور حكمة هاشم ، والدكتور شكري فيصل ، والدكتور سامي الدهان ، يعيشون بينكم في هذا البلد العربي الطيب ، ويؤدون رسالتهم القومية في نطاق الجامعة . وفي المغرب عضوان مراسلان في المجمع ، هما الاستاذان العالمان الجليلان ، السيد علال الفاسي والسيد عبد الله كنون ، يسهمان مع المجمع في تأدية رسالته ، كخير ما يكون عليه العاملون المخلصون .

واذا انتقلنا الآن الى صورة اخرى من صور الكتاب العربي ، الفينا أنفسنا أمام كفاح عنيد ، يضع أمامه هدفا ساميا يعمل له دونما كلل ، وفي ثقة لا تعرف التراخي ، وفي عزم موصول الاسباب بالعقيدة . تلك هي صورة الكتاب العربي في الجامعة السورية .

ولعل الحديث عن أوجه من أوجه هذا الكتاب ، وعن نماذج من نماذجه ، ان يكون اقرب الاحاديث الى نفوسكم ، ونحن في حمى جامعة محمد الخامس طيب الله ثراه ، وأنتم تتطلعون الى تعريب التعليم ، وتقفون كذلك من هذا التعريب مواقف مختلفات ، حيث يبدأ هذا الخلاف ضئيلا نحيلا في نطاق الدراسة الابتدائية ، ثم لا يزال يتضخم مع مراحل التعليم الاخرى حتى يكون أشد استفحالا في الجامعة .

ولعل قصة الكتاب الجامعي السوري ، اذ اضعها بين أيديكم ، ان تكون عنصرا نافعا جديدا ، يقرب ما بين الآراء المختلفة حول لغة التعليم الجامعي ، ويضرب المثل على تجربة علمية قومية ناجحة ، آتت أطيب الثمرات ، حتى اصبحت قدوة تحتذى .

حين جلا الاتراك عن بلاد الشام ، في نهاية الحرب العالمية الأولى ، كانت سورية على نحو مماثلة تقريبا ـ مع الاحتفاظ بالاشارة الى الفروق ـ لما كانت عليه حال المغرب في عام 1956 . ولقد ذكرت منذ دقائق ، كيف انه لم يكن هناك موظفون يتقنون العربية ، ولا أطر ـ على حد التعبير الشائع في المغرب ـ تنهض بعبء الادارة ، ولا فنيون يمكن ان يسدوا هذا الفراغ الذي نشأ عن أمرين : عن انسحاب تركية من ناحية ، وعن قيام الدولة العربية الجديدة ، باتجاهاتها ولغتها ومطامحها وآمالها من ناحية أخرى .

ولكن الذين أخذوا على عاتقهم أمر تأسيس الدولة آنذاك ، لم يركنوا الى شيء من دعة أو قنوط ، أو شيء من تلبث واصطبار ، بل انطلقوا كعمال بنائين في أرض

قفز ، ينتقل كل شيء فيها ظله . انطلقوا وقد خلفوا وراءهم كل معاني الدعة والاستسلام ، واسكتوا صيحات اليأس والحيرة ، التي كانت تنبعث من زوايا اليائسين الحائرين . وراحوا يبنون في كل جزء في آن واحد . فانشأوا المجمع العلمي العربي الذي تحدثت عنه ، والقوا اليه حركة التعريب والتاليف والترجمة ، والنظر في الكتب المدرسية وفي لغة الدواوين . فانكب اعضاؤه يعملون في غير ما انقطاع . وكانت القناعة العميقة التي سادت الدولة يومذاك ، والتي لم يخالطها تردد أو يمازجها قلق ، ان الكلمة العربية هي الكلمة التي يجب أن تسود ، وان الحرف العربي هو الحرف الذي يجب أن يعلو . وكان الفرق ـ فيما أقدر ـ بين الوضع في سورية آنذاك ، وبين الوضع في المغرب عام 1596 ، يتمثل في ثلاثة أمور :

ـ أولها : انه لم يكن هنالك بقايا من الاتراك تعرقل حركة التعريب .

ـ وثانيها : انه لم يكن هنالك هذا التأرجح بين اتجاهين أو عدة اتجاهات .

ـ وثالثها : ان الذين كانوا قد تثقفوا بالثقافة التركية ، لم يتعاطفوا مع ثقافتهم التي عاشوها واللغة التي عرفوها ، ولم يجعلوا منها ركيزة لهم أو درءاً يستظلون بظله . لقد انخرطوا في الحياة الجديدة ، واقبلوا على العربية اقبالا فيه هذا المعنى الصوفي الاستغراقي . ولذلك ، فقد مضت الحركة في غير تعثر ، ومضت سريعة مثمرة . ومن أين يكون لها هذا التعثر ، ولما ذا لا تكون لها هذه الثمرة ، اذا كان الاتجاه التعريبي لم يقاس مرارة التردد ، واذا كان المثقفون بالتركية ، لغة وثقافة ، قد خلعوا عنهم هذا الرداء ، لينسجوا رداءهم العربي الجديد ، خيطا خيطا ، وكلمة كلمة .

والذين واكبوا هذه الفترة ، أو تأملوا فيها ، يعرفون أنه كان على رأس الحركة ، انسان حظه كان من التركية اضعاف حظه من العربية . ولكنه اندفع يقود حركة التعريب . انسان كانت تتمنى تركيا لو خلص وحده لها من كل ارثها الذي خلفته في سورية . هذا الانسان ، هو أحد فلاسفة القومية العربية ، واحد قادتها ، الجندي المعلوم المجهول ، ساطع الحصري ، مد الله في عمره . فقد نفخ من روحه في نطاق التعليم وفي نطاق الادارة . ووضع أسس كل البنيان العربي الذي نستظل به اليوم في الحياة الثقافية في سورية .

ومن هذه القاعدة ، انطلقت الجامعة السورية في هذا الموكب الجاد ،تعرب دروسها ومحاضراتها . وكانت آنذاك ، لا تجاوز كلية الحقوق وكلية الطب . واندفع الاطباء ، بوجه خاص ، نحو التراث العربي ينبشونه ، فاذا حاضروا خطبوا بالعربية ، واذا تكلموا عن المصطلحات وضعوا لها المصطلحات العربية المماثلة ، واذا الفوا كتبوا بالعربية . وسرعان ما أعطى الجهد المؤمن الصابر ثمراته . فاذا الجامعة السورية في دراسة الحقوق وفي دراسة الطب وما يتصل به من كيمياء وفيزياء ورياضيات ، لا يند عنها ، أو لا يكاد ، مصطلح لا ترجمة له ، وبحث لا تاليف فيه ، وفرع من الفروع لا كتب تنشر عنه .

حتى اذا كانت الكليات الجديدة الاخرى : كلية العلوم بفروعها : الفيزياء والكيمياء والرياضيات والجيولوجيا ، وكليات الهندسة والزراعة والفنون ، وكليات الآداب والتربية والشريعة بفروعها الكثيرة المختلفة ـ كانت كلها تدرس بالعربية ، وتتخرج منها الاجيال المتلاحقة من الشباب العرب ، السوريين وغير السوريين ، الذين يملأون اطراف الارض العربية من طنجة الى الخليج. في كل مدرسة أو فيكل بلد منهم معلم.

لقد استجاب الكتاب الجامعي العربي الى جميع حاجات الدراسة الجامعية ومتطلباتها ، في الميدانين النظري والعلمي ، في قاعة الدرس وفي المخبر ، في غرفة العمليات الجراحية وفي الملعب الرياضي ، في المكتبة وفي النادي . ولم يدع الاساتذة بابا من أبواب المعرفة الا ألفوا وبحثوا فيه . فكان الكتاب الجامعي شاملا متنوعا ، باحثا في الآداب والفلسفة ، والتربية والتعليم ، وفي السياسة والحكم ، والادارة والقضاء والحقوق ، وفي شؤون المال والضرائب والتشريع ، وفي علوم الفقه والتفسير ، والحديث والاصول والشريعة ، وفي التجارة والصناعة ، وفي اللغة والاجتماع ، وفي التاريخ والجغرافيا، والرياضيات والفيزياء والكيمياء ، وفي الطب والمنطق والاخلاق ، وفي مختلف ألوان الفنون . وما يزال هذا الكتاب الجامعي ، يقدم كل عام جديد ، دراسات وأفكاراً جديدة ، تثبت الدليل، تلو الدليل ، على أن اللغة العربية، قادرة قدرة كاملة لا تعيبها نقيصة قط ، على ان تستوعب الحياة كلها ، وتتفاعل مع المجتمعات على اختلاف

اشكالها واوضاعها ومفاهيمها ودرجات تطورها .

لقد كانت الاسطورة الدخيلة ، التي تتسامل في خبث وبلاهة : وهل يمكن أن تدرس العلوم العالية باللغة العربية ـ كانت هذه الاسطورة ، تلفظ انفاسها في سورية، وكانت الجامعة السورية، بمخابرها وحلقاتها وأساتذتها، تكشف عن زيفها ، وترمي بها جثة ممقوتة في الصحراء ، بعيدا عن جنات المعرفة والعلم ، وعن ثمار الجهد والتعب. ولكن الاسطورة، كالاخطبوط الكبير ذي السواعد الطويلة، كانت لا تزال تعيش في بعض أطراف الوطن العربي . أما في المغرب ، فقد كان السؤال بعيدا عن أن يطرح آنذاك أمام العقل والنور ، لان اللغة الغازية كادت تكون متمكنة من كل شيء . فلما بدأت تصفية الاستعمار ، كان لابد من ان يطرح هذا السؤال في المغرب . وكان لابد للغة الغازية ، من أن تقف موقف المتحدي الرابض في مكانه ، المدافع عن نفسه . وكا نلابد لها من أن تصارع جهرا حينا ، وسرا أحيانا ، فتلم ذيولها في مكان ، لتصمد في أمكنة أخرى . وهي لا تزال في كر وفر ، واحجام واقدام ، قبل ان يبلغ بها الامر غايته . واحسب اننا لسنا في المغرب في حاجة الى أن نطيل ترقب الجواب، أو نمد في عمر النزاع فيه . حسبنا هذه التجربة الرائدة في سورية ، وقد عاشت بكل قوتها وعنفوانها ، وظفرها وثباتها ، حتى اتخذت طريقها الى جامعات القاهرة والجزائر . وان كان الحق ان مصر كانت أقدم البلاد العربية التي مارست التعليم الجامعي في بعض مياديته ، باللغة العربية منذ ايام محمد علي الكبير . لقد قلت : اننا في المغرب لا نحتاج ان نطيل في طور التجربة ، طالما ان اقطارا أخرى قد عاشت تلك التجارب ، وأفادت منها ، وبلغت مرحلة يمكن لنا أن نقاربها ونجلوها ونتعرف اليها ، حتى اذا انسنا بها تفاعلنا معها، واخذنا واعطينا، حتى تكون التجربة منا والينا ، وليست غريبة عنا بعيدة عن تفكيرنا .

× × ×

وتبقى أمامنا الصفحة الاخيرة من هذا الحديث ، وهي صفحة الكتاب الذي تحتضنه الدولة ، فتؤلف ما بين صاحب القلم وصاحب المطبعة وصاحب السلطة في التوزيع والتعميم. وتقدم لهؤلاء المال والرعاية والدعاية ، لا تنظر الى ربح أو خسارة ، بقدر ما تهدف الى نشر الفائدة ، ونفع الناس ، والدعوة الى المعرفة والصداقة مع الكلمة . والدولة حينما تحتضن الكتاب ، تنتقي الموضوع، وتسعى الى الخير، وترغب عما يضر بالناس، أو يسيء الى اخلاقهم وعاداتهم ، أو يتنافى مع عقائدهم ومفاهيمهم ، وانما تهدف الى اظهار الحق ، والكشف عن الزيف ، والبعد عن الضلال ، والى نشر المعرفة، وتثقيف المواطنين .

وهكذا ولدت وزارة الثقافة والارشاد القومي ، لتسعى الى تعميم المعرفة والثقافة بين الجماهير ، والتعريف بالحضارة العربية ، ونشر رسالتها ، وتوفير الامكانات لكي تلتقى بالحضارات العالمية الكبرى ، ولتسعى الى توجيه افراد الشعب توجيها قوميا صحيحا، وتنمية وعيهم القومي وارشادهم الى ما يرفع مستواهم الاجتماعي ، ويقوي روحهم المعنوية وشعورهم بالمسؤولية ، ويحفزهم على التعاون والتضحية ومضاعفة الجهود في خدمة وطنهم وعشيرتهم ، وتيسر لهم سبل الثقافة وتوسع نطاقها وتغنيها بالمبتكرات الحديثة ، ولتسعى الى احياء التراث العربي القديم في العلوم والآداب والفنون ، ولتحرص على سلامة اللغة العربية ، وتسهم في فتح الآفاق امامها ، لتتسع للعلوم والفنون والآداب والمخترعات الحديثة ، ولتسعى الوزارة بعد ذلك الى احداث المتاحف الاثرية والتاريخية والفنية والشعبية ، والى تشجيع الفنون والآداب والعلوم ، وتوفير أسباب الحياة والعمل والرفاهية لمحترفيها والعاملين في ميادينها .

ولكي تحقق هذه الوزارة الجديدة اهدافها ، وتبلغ غاياتها ، انشأت معاهد الثقافة الشعبية ، والمراكز الثقافية ومدارس مكافحة الامية ، وعقدت الندوات ، ونظمت المهرجانات ، وأسست الفرق الفنية ، والمسارح، واقامت المتاحف ، ونشرت وترجمت وحققت أمهات الكتب العربية والاجنبية . وهذا الوجه من أوجه نشاطها هو ما نود التحدث فيه .

فقد صدرت عن هذه الوزارة عدد كبير من الكتب. وسيلاحظ زوار المعرض ، ان هذه الكتب أنواع وتفاريع . انها ليست الكتاب القديم ، ولا الكتاب الجديد ، ولا الكتاب المترجم ، ولاالكتاب المؤلف . وانما هي كل ذلك ، علم وأدب ، وتاريخ ووثائق ، وسياسة واجتماع ، وفلسفة وتربية ، وصاروخ وذرة ، ومسرح وقصة ، وشعر ونفط ، تنتظمها سلاسل مختلفات : الثقافة الشعبية ، والادب الغربي ، والادب الشرقي ، والادب الجزائري ، والفكر العالمي ، والعلوم المبسطة ، وبلايين ،

ورواد التحرر العربي ، والتراث القـديـم ، والقصص ، والمسرح ، والفنون .

× × ×

تلك هي مجاري الكتاب العربي في سورية : الكتاب الحر ، والكتاب المجمعي ، والكتاب الجامـعي ، وكتاب الدولة . قدمتها لكم بالاسلـوب الذي ارتضيته . لم يكن اسلوبا احصائيـا ولا تاريخيا ولا ابجديـا . انـه نظرة تحاول ان تجمع اطراف سيـرة الـكتاب العربي بـهذه الاتجاهات الاربعة التي حدثتكم عنها .

ومن الطبيعي أن يكون لكل اتجاه خصائصه ، وان يكون له مذاقـه . ولكني أستاذنكـم في ان الاحظ انهـا كلها ، مشدودة الى مبدأ أساسي ، ذلك هو ان الـكتاب عندما ، لا يكون ، ولا يمكن ان يكون ، ولا يحق لـه أن يكون ، عملا تجاريا صرفا ، في أية مرحلة من مراحله : في مرحلة التاليف أو الطبع أو البيع . انـه أداة كريمـة نبيلة من أدوات الفكر والثقافة والمعرفة . انه روح هـذا الشعب العربي . انه مصباح الهداية ، ومن هنا استمد اسمه عندنا في العربية ، من الاسم الذي اطلقه الله عـز وجل في قرآنه المبين ، على الوحي الذي أوصى به الى الانبياء المرسلين . ولذلك يجب ان يظل الكتاب دائما فـي نطاق هذه القدسية ، لا يتعداها ، ولا تمتد اليه الايدي الملوثـة بشيء .

واحسب اننا استطعنا في سورية ، ان نعطي هذا الكتاب قداسته ، وان نحفظ عليه طهره ، وان نحتفظ لـه بقيمته الفكرية والاجتماعية ، بعيدا عن أن يكون شبكة صيد وفخ استغلال .

اننا سعداء بالذي قدمناه . وان كنا ندرك ، ان ما حفلناه قليـل ، واننـا يجب أن نضاعف الجهـد في هذا السبيل .

× + ×

في نهاية حديثي هـذا ، ازجي الشكر جزيـلا الى مكتب التعريب ، اذ دعا الى اقامة هذا المعرض الكريم ، لا هدف له فيه ، الا المعرفة والثقافة ، واللقاء ، الاخوي حول اقدس ما يجمـع العرب ، ويشد ازر بعضهـم الى بعض ، ويقيم بناء وحدتهم حول الكلمة ، نزل بها القرآن وحملها ذلك الفارس العربي الاشم ، حين أطل على الدنيا من فـوق كثبان الصحـراء ، ليعلي رايتها على هضـاب بواتييه ، وعند ضفاف السند البعيد .

والشكر لكم ، اذ سعيتم الى حمى الجامعـة ، في لقاء كريم ، تجشمتم فيه العناء . وان كان لي أمل اختم به الحديث ، فهو ان تسعد عيونـنا بالـكتاب المغربي ، يسعى الينا في عاصمة بني أمية ، فيعيد سيرته الاولى ، يوم كان حاملا مشعل النور ، مسهما في بنـاء الحضارة والسلام .